تطور وسائل الدفاع والهجوم
في عهد الدولتين الزيانية والمرينية

بقلم د/ بدرالدين شعباني*

إن تاريخ الحروب حافل بالمعارك الناجحة التي قادها كبار القادة العسكريين المحنكين، وقد توفر لهؤلاء القادة الجو المناسب والظروف الملائمة لذلك من جنود مدربين على أرقى مستوى، متعودين على الصبر والجلد أثناء الحروب، وجملة من الفعلة غير الظاهرين الذين غالبا ما ترتبط نتائج الحروب في الميدان بفعالهم وإنجازاتهم. أولئك هم العلماء والمهندسون والمبتكرون وذوو الرأي السديد والنصح الأمين، وغيرهم من المسخرين لخدمة ذلك السلطان أو الأمير وقادته في الحروب، حيث يمكننا إطلاق تسمية جنود الخفاء عليهم؛ ويرجع إليهم الفضل في ترجيح كفة الموازين في الحروب لما يأتون به من ابتكارات جديدة وآراء سديدة سواء كان ذلك في أسلحة الهجوم أو في وسائل الدفاع.

لقد تميزت فترة العصور الوسطى بالمغرب الإسلامي في الحقبة التي حكم فيها بنو حفص وبنو عبد الواد وبنو مرين بكثرة الحروب، وبظهور البارود واستخدامه في الحروب التي كانت دائرة رحاها بينهم وبين الأمم النصرانية، وابتكرت تبعا لذلك النماذج الأولى للأسلحة النارية الثقيلة المتمثلة في المدافع العاملة بِكُورِ الحديد، إضافة إلى ما كان متعارفا عليه من أسلحة بيضاء وسهام وأقواس ومزاريق؛ ولعل هذا الأمر يدفعنا للتساؤل عن مدى فعالية هذه المبتكرات الجديدة في الحروب؟ وعن أثرها على المنشآت العسكرية لتلك الحقبة التاريخية؟.

---

* جامعة قسنطينة2 – أستاذ محاضر (ب)

لقد اقتصر هذا الموضوع على الدولتين الزيانية والمرينية، باعتبارهما من نفس العائلة تربط بينهما صلة القرابة، والحدود الجغرافية التي توصف بالجوار، ولما عرفه عصرهما من فنون عسكرية غاية في الابتكار، وكثرة الصراعات بينهما أول الأمر ثم الاتحاد فيما بينهما لمواجهة قوات أمم النصارى.

يقول السلاوي: " اعلم أن العلامة الرئيس أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله قسم جيل زناتة إلى طبقتين الطبقة الأولى هي التي كان منها مغراوة ملوك فاس وبنو يفرن ملوك سلا وقد تقدم الكلام على دولتهم مستوفى، والطبقة الثانية هي التي كان منهم بنو عبد الواد ملوك تلمسان والمغرب الأوسط وبنو مرين ملوك فاس والمغرب الأقصى[1]".

وقد عرف القسم الأول من الطبقة الثانية بعبد الوديد أوبني عبد الواد نسبة إلى قبائل بني عبد الواد وهذه التسمية حرفت عن الأصل عابد الواد، وهي أحد بطون قبيلة زناتة بين جبال سعيدة شرقا ووادي ملوية غربا، كانوا من أنصار الموحدين، فنقل هؤلاء إليهم إدارة مدينة تلمسان.

وبعد سقوط دولة الموحدين استقل أبو يحي يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد (634 – 683 هـ / 1235- 1283 م) بالحكم، وتمكن بعدها من وضع قواعد لدولة قوية، ثبت خلالها قواعد الإمارة الزناتية، واتخذ الآلة ورتب الجنود والمسالح واستلحق العساكر من الروم والغز وناشئه وفرض العطاء واتخذ الوزراء والكتاب وبعث في الأعمال ولبس شارة الملك والسلطان واقتعد الكرسي[2].

وبعد ذلك قام ببناء مركب المشور بمدينة تلمسان، وكانت تلمسان – قبل يغمراسن – تتكون من بلدتين: تلمسان وهي الحصن أو القصبة، وتاجرارت، وكانت فيها مساكن الناس، فضم الاثنتين وحصنهما معا، وجعل من تلمسان قاعدة المغرب الأوسط[3]، التي ضمت ندرومة وهنين مرسى تلمسان البحري، ووهران، وتالموت، وتمزيزدكت[4]، ومستغانم، وشرشال، وبرشك، والبطحاء، ومازونة، ووانشريس، ومليانة، والقصاب، والمدية، وتافرجينت، وجميع بلاد بني عبد الواد، وبني توجين، وبلاد مغراوة[5].

والأمر الذي يستوقف النظر في تاريخ بني عبد الواد هو أن جهدهم الأكبر كان منصرفا إلى المحافظة على كيانهم وسط حشد كبير من الأعداء كانوا يحيطون بهم من كل جانب، فقد كانت تلمسان تحتل موقعا استراتيجيا مما جعل الدولة الزيانية تحتكر الطرق التجارية بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، ومتوسط قبائل البربر ومقصد تجار الآفاق.

فخلال القرن 7 هـ / 13م كانت تلمسان بلدا زاهرا جدا بمتاجره وكانت أسواقه تعد من أكبر أسواق السلاح الوارد من أوروبا عن طريق ممالك اسبانيا النصرانية وبخاصة كطلونية، ثم الجمهوريات الإيطالية وموانئ فرنسا الجنوبية، وكان تجارها يبادلونه بالعاج والأبنوس وتبر إفريقية بصورة خاصة[6]؛ وهو ما جعل منها مطمعا لكل جيرانها فكثرت صراعاتها وحروبها مع دول الجوار، وبصفة خاصة بين بني عبد الواد وبني عمومتهم من بني مرين.

أما القسم الثاني من الطبقة الثانية – بني مرين- فكانوا يمثلون قسما قويا بين قبائل زناتة: " فهم الآن سيوف الإسلام، وحماة دين النبي محمد عليه السلام، وهم أعلا قبائل زناتة حسبا، وأشرفها نسبا، وأعزها كرما، وأحسنها شيما، وأزكاها ذماما، وأرجحها أحلاما، وأنفذها رماحا، وأمضاها حساما، وأشدها في الحروب بأسا، وأكثرها إقداما، وأقواها دينا، وأصحها يقينا، وأوثقها عقدا، وأوفاها عهدا، وأوفرها عددا، وأطولها في الشدائد يدا، وأسرفها في الحروب فريقا، وأقومها طريقا.."[7].

فكانوا أقوى من بني عبد الواد، ".. وأوسع نطاقا وكان لهم عليهم الغلب مرة بعد أخرى. يقال إن عدد بني مرين لأول ملكهم كان ثلاثة آلاف وإن بني عبد الواد كانوا ألفا .. وعلى هذه النسبة في أعداد المتغلبين لأول الملك يكون اتساع الدولة وقوتها..[8]"، وطول أمدها.

وجيل زناتة في المغرب: ".. جيل قديم العهد معروف العين والأثر وهم لهذا العهد آخذون من شعار العرب في سكنى الخيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل والتغلب في الأرض وإيلاف الرحلتين وتخطف الناس من العمران والإباية عن الانقياد للنصفة، وشعارهم من بين البربر اللغة التي يتراطنون بها، وهي مشتهره

بنوعها عن سائر رطانة البربر ومواطنهم في سائر مواطن البربر بإفريقية والمغرب، فمنهم ببلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الأقصى حتى أن عامة تلك القرى الجريدية بالصحراء منهم .. ومنهم قوم بالتلول بجبال طرابلس وضواحي إفريقية وبجبل أوراس بقايا منهم سكنوا مع العرب الهلاليين لهذا العهد وأذعنوا لحكمهم والأكثر منهم بالمغرب الأوسط حتى أنه ينسب إليهم ويعرف بهم فيقال وطن زناته ومنهم بالمغرب الأقصى أمم أخرى وهم لهذا العهد أهل دول وملك بالمغربين..[9] ".

".. وكان بنو مرين منهم قبل استيلائهم على ملك المغرب أحياء ظواعن بمجالات القفر من فيجيج إلى سجلماسة إلى ملوية، وربما يخطون (كذا)* في ظعنهم إلى بلاد الزاب ويذكر نسابتهم أن الرياسة كانت فيهم في تلك العصور لمحمد بن ورزيز بن فكوس بن كرماط بن مرين، ومرين يتصل نسبه بزانا بن يحي أبي الجيل..[10]".

وفي سنة اثنتين وأربعين وستمائة خرج أبو الحسن السعيد علي بن المأمون بن المنصور الذي تلقب بالمقتدر بالله لتمهيد بلاد المغرب، وفي آخر سنة ثلاث وأربعين وستمائة بعث أهل إشبيلية وأهل سبتة بطاعتهم للأمير أبي زكريا الحفصي أيضا وبعث أبو علي بن خلاص[11] صاحب سبتة إليه بهدية مع ابنه في أسطول أنشأه لذلك فغرق بعد إقلاعه من المرسى بعدة اميال ومات جميع كان فيه[12].

ويذكر السلاوي أنه: ".. قبل هذه المدة بيسير كان الأمير أبو زكريا الحفصي قد تغلب على تلمسان وبايعه صاحبها يغمراسن بن زيان العبد الوادي، وهو جد ملك بني زيان أصحاب تلمسان والمغرب الأوسط فعظم قدر أبي زكريا بسبب هذه البيعات التي انثالت عليه من سائر الجهات وحدثته نفسه بالتوثب على كرسي الخلافة بمراكش، وغص بنو عبد المؤمن بمكانه وعظم عليهم استبداده ثم طمعه في كرسيهم وقرارة عزهم مع أنه ما كان إلا جدولا من بحرهم وفرعا من دوحتهم .. ولما بلغ السعيد وهو بمراكش استبداد الأمير أبي زكريا بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاني بإفريقية ومبايعة أمراء الجهات له أعمل نظره

---

* يخطون: والصواب أن يقول يرحلون أو يتنقلون

في الحركة إلى هؤلاء الثوار والنهوض لتدويخ هذه الأقطار، وكان السعيد شهما حازما يقظا بعيد الهمة فنظر في أعطاف دولته وفاوض الملأ من الموحدين في تثقيف أطرافها وتقويم أودها وحرك، هممهم وأثار حفائظهم وأراهم كيف اقتطع عنهم الأمر شيئا فشيئا فابن أبي حفص اقتطع إفريقية ويغمراسن بن زيان اقتطع المغرب الأوسط ثم أقام فيه الدعوة الحفصية، وابن هود اقتطع الأندلس وأقام فيها دعوة بني العباس وابن الأحمر بالجانب الآخر منها مقيم للدعوة الحفصية أيضا، وهؤلاء بنو مرين قد تغلبوا على ضواحي المغرب ثم سموا – (كذا) - إلى تملك أمصاره، وإن سكتنا على هذا فيوشك أن يختل الأمر وتنقرض الدولة فتذامروا وتداعوا إلى النهوض إليهم فحشد السعيد الجنود وجهز العساكر وأزاح عللهم واستنفر عرب المغرب وما يليه واحتشد كافة المصامدة، ونهض من مراكش آخر سنة خمس وأربعين وستمائة يريد مكناسة، وبني مرين أولا ثم تلمسان، ويغمراسن ثانيا ثم إفريقية وابن أبي حفص ثالثا..[13]".

وجاء عند ابن خلدون أنه: " .. فى سنة ست وأربعين كان استيلاء حاكم اسبانيا الملقب بالطاغية على اشبيلية لسبع وعشرين من رمضان، ولما بلغ السعيد بيعة أهل اشبيلية وسبتة للأمير أبى زكريا إلى ما كان من تغلبه على تلمسان، وأمر يغمراسن بدعوته ثم ما كان من بيعة أهل مكناسة، وأهل سجلماسة – له – أعمل نظره في الحركة إلى تلمسان ثم إلى افريقية، وخرج إلى مراكش في ذى الحجة من سنة خمس وأربعين، ووافاه كانون بن جرمون فعاوده الطاعة واستحشد سفيان وجاء في جملة السعيد مع سائر القبائل من جشم، ولما احتل السعيد بتازى وافاه وفد بنى مرين عن أميرهم أبي يحيي بن عبد الحق فأعطوه الطاعة، وبعثوا معه عسكرا من قومهم مددا له ثم ثار السعيد إلى تلمسان فكان مهلكه بتامزيردكت – تمزيزدكت– على يد بنى عبد الواد في صفر سنة ست وأربعين ..[14]".

لقد استمرت الحروب طاحنة بين الأطراف المتناحرة على الحكم حيث استبد بنو مرين بملك المغرب الاقصى وبنو عبد الواد بملك المغرب الاوسط وبنو أبى حفص بإفريقية، وخمدت ذبال عبد المؤمن وركدت ريحهم وأذنت بالانقراض دولتهم وأشرف على الفناء أمرهم، ولما قوي الصراع بين بني عبد الواد وبني مرين " .. نزل السلطان يوسف بساحة تلمسان ثاني شعبان سنة ثمان وتسعين وستمائة فأناخ عليها

بكلكله، وربض قبالتها على ترائبه، وأنزل محلته بفنائها وأحاط بجميع جهاتها وتحصن يغمراسن وقومه بالجدران وعولوا على الحصار، ولما رأى السلطان يوسف ذلك أدار سورا عظيما جعله سياجا على تلمسان وما اتصل بها من العمران، وصيرها في وسطه ثم أردف ذلك السور من ورائه بحفير – خندق – بعيد المهوى وفتح فيه مداخل لحربها، ورتب على أبواب تلك المداخل مسالح تحرسه وأوعد بالعقاب من يختلف إلى تلمسان برفق أو يتسلل إليها بقوت وأخذ بمخنقها من بين يديها ومن خلفها حتى لم يخلص إليها الطير لا بل الطيف واستمر مقيما عليها كذلك مائة شهر، ولما دخلت سنة اثنتين وسبعمائة اختط إلى جانب ذلك السور بمكان فسطاطه، وقبابه قصرا لسكناه واتخذ به مسجدا لصلاته وأدار عليهما سورا يحرزهما ثم أمر الناس بالبناء حول ذلك فبنوا الدور الواسعة، والمنازل الرحيبة، والقصور الأنيقة، واتخذوا البساتين، وأجروا المياه، وأمر السلطان باتخاذ الحمامات، والفنادق، والمارستان، وابتنى مسجدا جامعا أقامه على الصهريج الكبير وشيد له منارا رفيعا وجعل على رأسه تفافيح من ذهب صير عليها سبعمائة دينار..(15)".

ولما اتسعت خطة المدينة المشيدة حديثا أدار عليها السور فصارت مدينة عظيمة استبحر عمرانها بما لم تبلغه مدينة ونفقت أسواقها، ورحل إليها التجار بالبضائع من جميع الآفاق وسماها المنصورة، فخطب الملوك سلمه ووده ووفدت عليه رسل الموحدين وهداياهم من تونس وبجاية وكذلك رسل صاحب مصر والشام وهديته(16).

وكانت المدينة من:".. أعظم أمصار المغرب وأحفلها إلى أن خربها آل يغمراسن عند مهلك السلطان يوسف وارتحال جيوشه عنها، ولما تمكن السلطان يوسف من حصار تلمسان سرح كتائبه وسراياه في أعمالها وحصونها فاستولى في مدة قصيرة على ندرومة، وهنين، ووهران، وتالموت، وتمزيزدكت، ومستغانم، وتنس، وشرشال، وبرشك، والبطحاء، ومازونة، ووانشريس، ومليانة، والقصبات والمدية، وتافرجينت، وجميع بلاد بني عبد الواد، وبلاد بني توجين، وبلاد مغراوة، وبايعه ابن علان صاحب الجزائر، وأخذ رعبه بملوك الناحية وكانت دولة بني أبي حفص يومئذ قد انقسمت بقسمين فصار كرسي منها بتونس، وآخر ببجاية

فتنافس صاحب تونس، وصاحب بجاية في مصانعة السلطان يوسف والتقرب إليه بالهدايا والتحف، وصار السلطان يوسف في ذلك الوقت ملك المغرب على الحقيقة والإطلاق..[17]".

لقد انعكست هذه الحروب على الجانب العلمي الذي أصبح يسخر للصراع نحو التسلح بغية ابتكار الأسلحة الجديدة ووسائل الدفاع المناسبة لصد أسلحة الخصم المبتكرة، وهو ما جعل هذا العصر يعرف تطورا كبيرا في مجال الأسلحة وآلات الحصار لدى بني مرين، وقابل ذلك تطورا مماثلا في وسائل الدفاع عند بني زيان، فـ: ".. لما فتح السلطان أبو يعقوب المريني بلاد المغرب وانتظم أمصاره ومعاقله في طاعته، وغلب بني عبد المؤمن على دار خلافتهم ومحا رسمهم، وافتتح طنجة، وطوع سبتة مرفأ الجواز إلى العدوة وثغر المغرب سما أمله إلى بلاد القبلة فوجه عزمه إلى افتتاح سجلماسة من أيدى بنى عبد الواد المتغلبين عليها، وإدالة دعوته فيها من دعوتهم فنهض إليها في العساكر والحشود في رجب من سنة اثنتين وسبعين وستمائة فنازلها، وقد حشد إليها أهل المغرب أجمع من زناتة والعرب، والبربر، وكافة الجنود والعساكر، ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة باريها، فأقام عليها حولا كاملا يغاديها القتال، ويراوحها إلى أن سقطت ذات يوم على حين غفلة طائفة من سورها بإلحاح الحجارة من المنجنيق عليها – (كذا) – فبادروا إلى اقتحام البلد فدخلوها عنوة من تلك الفرجة في صفر من سنة ثلاث وسبعين..[18]".

إن هذا الأمر يوحي بوجود البارود في ذلك التاريخ، وبامتلاك المرينيين للنماذج الأولى من المدافع العاملة بالبارود، وأن المقاتلة كانوا يستعملونه في محاصراتهم وحروبهم يومئذ بالإضافة إلى المنجنيقات.

كما أن عملية الحصار الطويل التي ضربها أبو يعقوب المريني حول تلمسان من سنة (698 - 706 هـ / 1300 – 1308م)، والتي انتهت بوفاته سنة 1308م دون أن يستطيع اقتحام المدينة الزيانية، يوحي بفعالية هذه الأسوار المبنية بالتراب المدكوك (Le Pisé) لصمودها في وجه الأسلحة النارية الجديدة، وذلك لقدرتها العالية على امتصاص الصدمات، وهو ما يرجح لدينا كفة التكافؤ العلمي بين الفرقتين المتصارعتين.

ومن آثار بني عبد الواد الباقية بناية عسكرية تصنف في علم الحروب ضمن المراكز المتقدمة، وهي معسكر تمزيزدكت (Le Camp de Tamzezdekt) قرب بلدة القصر والتي تبعد حوالي 25 كلومتر عن بجاية على الطريق الرابط بين هذه المدينة والجزائر العاصمة، والتي شيدت بنفس الأسلوب المقاوم للصدمات، والظاهر أنها مقاومة للعوامل الجوية كذلك لاستمرار أجزاء منها قائمة إلى يومنا هذا رغم عدم خضوعها لعمليات الترميم.

وفي الفترة التي اشتغل فيها بنومرين وبنو عبد الواد وبنو حفص في الصراع فيما بينهم، ومنذ وقعة العقاب (609 هـ / 1212 م) ثار أهل الأندلس، وطغى أهل النصرانية وأرادوا احتلال كل الأندلس، وقد صور المشهد ابن خلدون كما يلي: ".. حتى جاءت بعدها الطامة الكبرى على أهل الكفر، واتصل الخبر بأمير المسلمين (السلطان يعقوب بن عبد الحق) فاعتزم على الغزو بنفسه، ولما خشي على ثغور بلاده من عادية يغمراسن في الفتنة بعث حفيده تاشفين بن عبد الواحد في وفد من بني مرين لعقد السلم مع يغمراسن، والرجوع إلى الاتفاق، والموادعة، ووضع أوزار الحرب بين المسلمين للقيام بوظيفة الجهاد فأكبرم موصله وموصل قومه وبادر إلى الاجابة والألفة، وأوفد مشيخة بني عبد الواد على السلطان لعقد السلم، وبعث معهم الرسل وأسنى الهدية وجمع الله كلمة الإسلام (كذا)، وعظم موقع هذا السلم من أمير المسلمين لما كان في نفسه من الصاغية إلى الجهاد وإيثاره مبرورات الأعمال، وبث الصدقات يشكر الله على ما منحه من التفرغ لذلك ثم استنفر الكافة واحتشد القبائل والجموع ودعا المسلمين إلى الجهاد، وخاطب في ذلك كافة أهل المغرب من زناتة والعرب والموحدين والمصامدة وصنهاجة وغمارة وأوربة ومكناسة وجميع قبائل البرابرة وأهل المغرب من المرتزقة والمتطوعة وأهاب بهم وشرع في إجازة البحر؛ فأجازه من فرضة طنجة لصفر من سنة أربع وسبعين (674 هـ/1275 م)، واحتل بساحة طريف، وكان لما استصرخه سلطان بني الاحمر (أبوعبد الله محمد الثاني)، وأوفد عليه مشايخ الأندلس اشترط عليه النزول عن بعض الثغور بساحل الفرضة لاحتلال عساكره فتجافى له عن رندة وطريف؛ ولما نزل بطنجة بادر إليه ابن هشام الثائر بالجزيرة الخضراء وأجاز البحر إليه ولقيه بظاهر طنجة؛ فأدى له طاعته وأمكنه من قياد بلده .. وأغذ السير إلى

الفرنتيرة، وعقد لولده الامير أبي يعقوب على خمسة آلاف من عسكره وسرح كتائبه في البسائط وخلال المعاقل تنسف الزرع، وتحطم الغروس، وتخرب العمران، وتنتهب الأموال وتكتسح السرح، وتقتل المقاتلة، وتسبي النساء، والذرية حتى انتهى إلى المدور، وتالسة، وأبده، وأقتحم حصن بلمة عنوة، وأتى على سائر الحصون في طريقه فطمس معالمها، واكتسح أموالها زقفل، والأرض تموج سبيا إلى أن عرس بأستجة من تخوم دار الحرب، وجاء النذير باتباع العدو آثارهم لاستنقاذه أسراهم وارتجاع أموالهم، وأن زعيم الروم وعظيمهم ذننه خرج في طلبهم بأمم بلاد النصرانية من المحتلم فما فوقه، فقدم السلطان الغنائم بين يديه وسرح ألفا من الفرسان أمامها، وسار يقتفيها حتى إذا طلت رايات العدو من ورائهم كان الزحف، ورتب المصاف، وجرد، وذكر، وراجعت زناتة بصائرها وعزائمها، وتحركت هممها وأبلت في طاعة ربها، والذب عن دينها، وجاءت بما يعرف من بأسها وبلائها في مقاماتها ومواقفها، ولم يكن إلاَّ كَلاَّ ولاَ حتى هبت ريح النصر، وظهر أمر الله، وانكشفت جموع النصرانية، وقتل الزعيم ذننه، والكثير من جموع الكفر، ومنح الله المسلمين أكتافهم، واستمر القتل فيهم وأحصى القتلى في المعركة فكانوا ستة آلاف، واستشهد من المسلمين ما يناهز الثلاثين أكرمهم الله بالشهادة وآثرهم بما عنده، ونصر الله حزبه، وأعز أولياءه، ونصر دينه، وبدا للعدو ما لم يحتسبه بمحاماة هذه العصابة عن الملة، وقيامها بنصر الكلمة، وبعث أمير المسلمين برأس الزعيم ذننه إلى ابن الأحمر .. وقفل أمير المسلمين راجعا من غزواته إلى الجزيرة منتصف ربيع من سنته — أي سنة (674 هـ / 1275 م) – فقسم في المجاهدين الغنائم، وما نفلوه من أموال عدوهم وسباياهم، وأسراهم، وكراعهم بعد الاستئثار بالخمس لبيت المال على موجب الكتاب والسنة ليصرفه في مصارفه، ويقال كان مبلغ الغنائم في هذه الغزاة مائة ألف من البقر، وأربعة وعشرين ألفا، ومن الأسارى سبعة آلاف، وثمان مائة، وثلاثين، ومن الكراع أربعة عشر ألفا وستمائة، وأما الغنم فاتسعت عن الحصر كثرة حتى لقد زعموا بيع الشاة في الجزيرة بدرهم واحد وكذلك السلاح، وأقام أمير المسلمين بالجزيرة أياما ثم خرج غازيا إلى أشبيلية فجاس خلالها، وتقرى نواحيها وأقطارها، وأثخن بالقتل، والنهب في مجهاتها وعمرانها، وارتحل إلى شريش فأذاقها وبال العيث والاكتساح، ورجع إلى الجزيرة لشهرين من غزاته ونظر في اختطاط مدينة بفرضة المجاز من العدوة لينزلها عسكره منتبذا عن الرعية لما يلحقهم من ضرر العسكر، وجفائهم، وتحيز لها مكانا لصق الجزيرة

الخضراء، فأوعز ببناء المدينة المشهورة بالبنية، وجعل ذلك لنظر من يثق به من ذويه ثم أجاز البحر إلى المغرب في رجب من سنة أربع وسبعين فكان مغيبه وراء البحر ستة أشهر، واحتل بقصر مصمودة، وأمر ببناء السور على بادس مرفأ الجواز ببلاد غمارة وتولى ذلك ابراهيم بن عيسى كبير بنى وسناف بن محيو ثم رحل إلى فاس[19].

وخلاصة القول أن السياسة العسكرية المنتهجة قبل عهد السلطان أبي الحسن المريني في اتخاذ وسائل الدفاع والهجوم كانت تقوم على إنشاء المدن ذات الصبغة العسكرية أو ما يعرف بمدن المعسكرات، وهي عبارة عن مراكز متقدمة يستقر ويتحصن بها السلطان وحاشيته والمحاربة من الجيوش لشن الهجومات على المناطق المراد فتحها، ومن أمثلة ذلك مدينة البنية التي جعلها مقرا لجيوشه المحاربة في الميدان الأندلسي، ومنصورة تلمسان التي حملت نفس الصبغة منذ أول إنشائها، وكذلك تطوان بالقرب من سبة، وأفرا ك التي بناها السلطان أبو سعيد المريني بالقرب من سبتة، وبالإضافة إلى إقامة المدن ذات الطسعة العسكرية كانت تبنى الحصون المسورة وحولها الخنادق، والتي تشحن بالأقوات والمؤن لميرة الجند.

كما كانوا يقومون بترميم الأسوار المتداعية والبالية، وإقامة أسوار جديدة حول المدن غير المسورة كبناء السور حول بادس مرفأ الجواز إلى بلاد الأندلس في عهد يوسف بن يعقوب، هذا الأخير الذي شحن حصن تاوريرت على الحدود الشرقية لدولته في مواجهة يغمراسن بن زيان بالقوت والمؤن، كما أعاد بناء مدينة وجدة، وحصن أسوارها، ونفس الشيء عمله أبوتاشفين لما امتنعت عليه أوطان بجاية حيث: "..ابتنى الحصون لتجمير الكتائب بها، فابتنى بوادي بجاية من أعلاه حصن بكر ثم حصن تمزيزدكت على مرحلة من تيكلات، وشحنها بالأقوات والعساكر وصيرها ثغر المملكة، وأنزل بها جنده، وعقد عليها لموسى بن على الكردى كبير دولته ودولة أبيه..[20]".

لقد اتسمت هذه البنايات الدفاعية بالضخامة والسرعة في الإنجاز، وهي متطلبات عسكرية لا مندوحة عنها في الحروب، ومنذ عهد السلطان أبي الحسن المريني أنشئت المحارس على طول الساحل من

آسفي إلى جزائر بني مزغنة، وكانت هذه المحارس عبارة عن أبراج عالية، رتب فيها المستطلعون والمستكشفون للبحر، فعند ظهور القطع البحرية للعدو يسارع هؤلاء المرابطون على الثغور البحرية بإشعال النيران في أعالي الأبراج إنذارا بالنفير فيشيع الخبر عبر كل ساحل البحر الرومي – البحر الأبيض المتوسط– في ليلة أو أقل من الليلة[21].

وعلى نفس النمط أقام السلطان أبراج الماء قرب سبتة ببحر بشول وبمشحنها، وبنى برجين على نفس الطراز بجبل الفتح* – (جبل طارق) – الذي استرجعه لحياض المسلمين سنة (733هـ / 1337م)، ولما كان هذا الجبل ذا أهمية استراتيجية كونه لإطلالته على عتبة عدوة الأندلس، ولكونه مفتاحها ومغلقها فقد عمل السلطان أبو الحسن على ".. بنائه وتحصينه، وأنفق عليه أحمال مال في بنائه، وحصنه، وسوره، وأبراجه، وجامعه، ودوره، ومخازنه، ولما كاد يتم ذلك نازله العدو برا وبحرا فصبر المسلمون وخيب الله سعي الكافرين فأراد السلطان المذكور أن يحصن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع عدو في منازلته، ولا يجد سبيلا للتضييق عليه عند محاصرته، ورأى الناس ذلك من المحال فأنفق الأموال وأنصف العمال فأحاط بمجموعه إحاطة الهالة بالهلال، وكان بقاء هذا الجبل بيد العدو نيفا وعشرين سنة..[22]".

ثم عمرت المدينة، وصارت التربة الحمراء بالمباني الحافلة والمساكن العالية بيضاء، وصارت بها أسواق وجامع للصلاة والخطبة وحمام .. وشحن أبو الحسن أبراج الجبل كلها والسفح والدور بالأبطال، والشجعان من الرجالة والفرسان، وأجرى عليهم ومن معهم من أسرهم المرتبات الكافية[23].

وقد استعمل المرينيون أسلحة مبتكرة بالنسبة لعصرهم في الدفاع عن الجزيرة الخضراء التي هاجمها القشتاليون سنة (742هـ / 1342م)، تمثلت في الأسلحة النارية، ونوعا آخر من الأسلحة ابتكره الصناع، والمهندسون كان يسمى قوس الزيار، وكانت هذه القوس بعيدة النزع عظيمة الهيكل توقر على أحد عشر

* الحقيقة أن أول من بنى جبل الفتح هو عبد المومن الكومي وكان ذلك في 09 ربيع الأول (555 هـ / 1169 م).

بغلا[24]، كما استمرت الأسلحة التقليدية في الاستعمال في هذه المرحلة ممثلة في السيوف، والرماح، والدرق، والبلط، والطبرزينات، والمجانيق، والعرادات، وغيرها من الآلات المعتمدة في عمليات الحصار.

ورافق هذا التطور في عمليات التسلح ازدهار في صناعة الأزياء الخاصة بالجيوش سواء تعلق الأمر بالسلطان أو القادة والجنود، وقد ذكر القلقشندي هذه الأزياء فقال: ".. أما زي السلطان والأشياخ وعامة الجند فإنهم يتعممون بعمائم طوال قليلة العرض من كتان (كذا)، ويعمل فوقها إحرامات يلفونها على أكتافهم، ويتقلدون السيوف تقليدا بدويا، ويلبسون الخفاف في أرجلهم وتسمى عندهم *الأنمقة* كما في أفريقية ويشدون المهامز فوقها، ويتخذون المناطق وهي *الحوائص* ويعبرون عنها *بالمضمات* من فضة أو ذهب، وربما بلغت (زنة) كل مضمة منها ألف مثقال ولكنهم لا يشدونها إلا في يوم الحرب أو يوم التمييز وهو يوم عرضهم على السلطان، ويختص السلطان بلبس البرنس الأبيض الرفيع لا يلبسه دو سيف غيره.."[25].

ومن الصناعات التي ارتبطت بالجيش كذلك صناعة الأعلام والطبول اللازمة للجيش، فقد كان علم الدولة المرينية علما أبيضا من حرير مكتوب فيه بالذهب المنسوج بأعلى دائرة آيات من القرآن الكريم، وكانوا يسمونه العلم المنصور كما في أفريقية، وربما عبر عنه هؤلاء بسعد الدولة لأنه كان يحمل بين يدي السلطان في المواكب، ومنها أعلام دونه مختلفة الألوان تحمل معه أيضا، بينما اشتهرت الدولة الزيانية بالأعلام والرايات الزرقاء يتوسطها الهلال[26].

وكان في المواكب يحمل بين يدي السلطان سيف ورمح ودرقة يحملها ثلاثة من خاصته من وصفائه أو من أبناء خدم سلفه، ومنها أطبار تحمل حوله، ويعبرون عنها بالطبرزينات يحملها أكابر قواد علوجه من الفرنج ورجال من الأندلسيين خلفه وقدامه، ومنها رماح طوال وقصار يحملها خمسون رجلا مشاة بين يديه مشدودي الأوساط بيد كل واحد منهم رمحان: رمح طويل ورمح قصير، وهو متقلد مع ذلك بسيف، ومنها الجنائب وهي خيل تقاد أمامه عليها سروج مخروزة بالذهب كالزركش، وركابها ذهب كل ركاب زنته ألف دينار وعليها ثياب سروج من الحرير مرقومة بالذهب ويعبرون عن الجنائب بالمقادات وعن

ثياب السروج بالبراقع، ومنها الطبول تدق خلف ساقته وهي من خصائص السلطان ليس لأحد من الناس أن يضرب طبلة غيره حتى يمنع من ذلك أصحاب الحلق، ومنها البوقات مع الطبل على العادة[27].

إضافه إلى ما سبق فقد رافق هذا التطور في استعمال الأسلحة اهتمام بالغ بالأسطول البحري، وما تعلق به من بناء دور الصناعة – صناعة السفن –، والصناعات الحربية المتعلقة بها، فقد كان أبو عنان المريني (749 – 759هـ / 1348 – 1358م)، يبني الأجفان في منزل خولان ثم تدفع هذه الجفن في وادي سبو حتى تصل إلى معمورة سلا على البحر المحيط – المحيط الأطلسي–، فقام هناك ".. بإنشاء جفنين اثنين إحداهما شيطي يجر – (كذا) – مائة وعشرين مجدافا والثاني شلير ويجر ستين مجدافا.. "[28].

" .. وكانت بمعمورة سلا دار لصناعة السفن بناها المعلم أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج من أهل إشبيلية وكان من المبرزين بالحيل الهندسية ومن أهل المهارة في نقل الأجرام ورفع الأثقال بصيرا باتخاذ الآلات الحربية الجافية[29]، وقد كانت تصنع بها الأساطيل البحرية والمراكب الجهادية يجلب إليها العود من غابة المعمورة، وكان السلطان أبو الحسن المريني يأمر بدفع الأحمال الكثيرة من خشب الأرز من منزل خولان فتصنع هنالك سفنا حربية ثم ترسل في الوادي، وكان العمل بهذا الأسلوب جاريا منذ عهد الدولة الموحدية، كما كلف أبا الحسن المريني أحد وزرائه، وهو أبو ثابت عامر بن فتح الله السدراتي بالإشراف على بناء دار صناعة أخرى للسفن بسبتة[30].

لقد كان هذا موجز عن الأسلحة التقليدية والمبتكرات العسكرية في مجال الأسلحة التي عرفها المغرب الإسلامي في فترة القرون الوسطى، وبخاصة على عهد الدولتين الزيانية والمرينية اللتين بلغتا الذروة في عصريهما باعتبارهما كانتا سباقتين لاستعمال البارود والنماذج الأولى للمدافع؛ وكذا الإبتكار في تطوير وسائل الدفاع والهجوم بحسب الحاجة إلى ذلك، وهي أشياء لم تكن معروفة ولا مألوفة في شبه جزيرة إيبيريا وأوروبا؛ وما من شك أن هذا الأمر جعلهما مركز ثقل بالنسبة للمغرب برمته، وبخاصة بعد أن توحدتا لحماية مسلمي الأندلس ضد المعتدين من الأمم المسيحية والنصرانية مما جعلهما يتحديان بنجاح الدول المسيحية، ومما جعلهما مرهوبتي الجانب.

الهوامـش:

1) أبو العباس احمد بن خالد بن محمد الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء 1418هـ/1997م، ج3، ص 3. ولتفصيل أكثر حول هذه الطبقات والشعوب يرجى الرجوع إلى: عبد الرحمان ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، ط4، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، د ت، ج7، ص 11 وما بعدها.

2) ابن خلدون، ج7، ص 79.

3) نفس المصدر، ج7، ص 76.

4) تمزيزدكت: أصل الكلمة أمازيغي وتعني الأرض المنظفة، وتطلق على موقعين الأول: قرب وجدة المغربية والثاني: قرب بلدة القصر على بعد 25 كلم. وقد رسمت بعدة رسوم في كتب التاريخ والمصادر، كابن خلدون وغيره ممن نقل عنه، والصحيح ما حققناه مع أساتذة اللسانيات، وما أثبتناه بالرجوع إلى الأصل الأمازيغي للكلمة.

5) ابن خلدون، ج7، ص ص 221- 222. وكذلك: ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تقديم وتحقيق وتعليق: هاني سلامة، ط1، مكتبة الثقافة الدينية 1421/2001، ص 27.

6) ابن الأحمر، نفس المرجع، ص 16. وانظر: البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دت، ص 77.

7) علي ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور، الرباط 1843/ 1972، ص 13.

8) ابن خلدون، ج1، ص 163.

9) نفس المصدر، ج7، ص 2.

10) السلاوي، نفس المرجع، ج3، ص ص 3 - 4.

14) الوزير أبي علي ابن خلاص البلنسي صاحب سبتة، أنظر: ابن خلدون، ج6، ص 256. وكذلك: ابن أبي زرع، الذخيرة...، ص 67.

12) ابن خلدون، ج6، ص 257. وانظر كذلك: ابن أبي زرع، ص ص 67 – 68.

13) السلاوي، نفس المرجع، ج2، ص ص 248 - 249.

14) ابن خلدون، ج6، ص ص 257 - 258.

15) السلاوي، نفس المرجع، ج3، ص 79 – 80.

16) ابن خلدون، ج7، ص 96.

17) السلاوي، نفس المرجع، ج3، ص 80.

18) ابن خلدون، ج7، ص 188 - 189.

19) نفس المصدر، ج7، ص ص 192 – 193 بتصرف.

20) نفس المصدر، ج7، ص 251. ولمزيد من المعلومات حول الموضوع يرجى الرجوع إلى: ابن أبي زرع، الذخيرة...، ص ص 143 – 159.

21) استعملت النار في الإشارة كوسيلة من وسائل المراسلة وقد برع في استخدامها سكان ساحل الشمال الإفريقي منذ القرن الثالث الهجري، فقد كانت الرسائل تصل من الإسكندرية غلى سبتة في ليلة واحدة، ومن طرابلس إلى الإسكندرية في ثلاثة ساعات إلى أربع، ولم يبطل هذا الخط الأخير إلا في سنة 440 هـ / 1048 م، حينما ثار المغرب على الفاطميين ولم يعد بإمكانهم حماية الحصون من البدو. أنظر في ذلك: بدرالدين شعباني،" الأسلحة في عهد الدولة الفاطمية من خلال النصوص"، في منشورات البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي، عمل جماعي تحت عنوان:" من قضايا التاريخ الفاطمي في دوره المغربي "، تقديم وتنسيق: د/ بوبة مجاني، دار بهاء الين للنشر والتوزيع، قسنطينة 2007، ص 176.

22) أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، ج1، دار صادر، بيروت 1968، ص ص 451 - 452.

23) نقلا عن: محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، ط2، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت 1407 هـ ./1987م، ص 329.

24) ابن خلدون، ج7، ص 220. وانظر كذلك: عيسى الحريري، نفس المرجع، ص 286. نقلها عن: ابن خلدون، العبر، ط بولاق، ج7، ص 220. (أنظر الهامش 233).

25) أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: يوسف علي طويل، ج5، ط1، دار الفكر، دمشق 1987، ص ص 4 - 5.

26) نفس المصدر، ج5، ص 200.

27) نفس المصدر، ج5، ص 201.

28) على الجزنائي، جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط 1991، ص 37.

29) نفس المصدر، ص 38.

30) محمد عيسى الحريري، نفس المرجع، ص 287.